مجلة الدراسات الأثرية ISSN: 1111-7699
المجلد:19العدد:1 /2021/.ص ص:210-229 EISSN 2600-6499

# تجارة الصوف بالجزائر خلال الفترة العثمانية

# Wool trade in Algeria during the ottoman period

عاشوري ساجية*

المدرسة الوطنية العليا لحفظ الممتلكات الثقافية وترميمها. تيبازة (الجزائر) Sadjiachouri06@yahoo.fr

**تاريخ الإستلام 2021/08/12 تاريخ القبول 2021/12/12 تاريخ النشر 2021/.12/19**

**الملخص**

تُعدّ تربية الماشية من أهمّ ثروات سكان الأرياف، تنتشر عبر أغلب مناطق البلاد بدرجات متفاوتة، فغالبا ما يلجأ مربّيها إلى التجارة بها مباشرة عن طريق بيعها في أسواق المواشي أو جزّ صوفها وبيعه في الأسواق الداخلية اليومية منها أو الأسبوعية أو السنوية، فهي ثروة جيّدة لأصحابها نظرا لاقتنائها الكبير من طرف السكان لسدّ حاجياتهم النسيجية، هذا من جهة، ومن أخرى أضحت هذه المادة من بين المواد الأساسية المصدرة سواء نحو البلدان المجاورة والبلدان العربية والإفريقية عن طريق القوافل التجارية أو نحو البلدان الأوروبية غالبا عن طريق الموانئ، فساهمت في التبادل التجاري من خلال عمليات الاستيراد والتصدير التي تقوم بها الدولة أو عبر الصفقات المربحة التي كان يقوم بها المسؤولون.

**الكلمات المفتاحية:** صوف، تجارة، سوق، اقتصاد، موانئ.

**Abstract**

Livestock farming is one of the most important wealth of the rural population. It spreads across most regions of the country to varying degrees. Breeders resort to trading in it directly by selling it in the livestock markets or shearing its wool and selling it in the daily, weekly or annual internal markets, which are considered as a good fortune for their owners, On the one hand, due to its large acquisition by the population and to meet their textile needs.

On the other hand, the wool has become among the basic materials exported to neighboring countries, Arab and African countries through the route of commercial convoys or through harbors towards the European countries primarily, which contributed to the exchanging via import and export operations carried out by the state or through deals done by high-ranking official.

**Keywords:** wool, trade, market, Economy, harbors.

* أستاذ محاضر، قسم (ب)

## 1. مقدمة

اشتهرت بلاد المغرب الإسلامي عبر العصور بكثرة الإنتاج الحيواني وتنوّعه كالأبقار والأغنام والخيول والجمال، نظرا لامتداد المراعي الشاسعة في سفوح الجبال وعلى ضفاف الأودية والأنهار، حيث تتوفر أنواع عدّة من الأشجار والأعشاب، فترعى الأغنام والماعز في الجبال وسفوحها، وتربى الأبقار والخيول في السهول والمروج، بينما تقلّ المراعي في المناطق الجافة وشبه الصحراوية.

وتعتبر تربية الأغنام أكثر موارد المنتجات الحيوانية كالألبان والأصواف واللحوم، كما تتميز الأغنام بكثرة الصوف وتحمّل شدّة البرودة في فصل الشتاء، فاشتهرت مناطق ومدن وبوادي عديدة بتنوّع هذه الثروة الحيوانية، مثل مدينة الجزائر وشرشال ووهران وأرشقون والمسيلة وتاهرت غيرها، فكانت المورد الأساسي لقيام الحرف النسيجية المستعملة خلال الحياة اليومية للأفراد والجماعات كالكساوي وقطع الأثاث من أفرشة وزرابي وخيم أو قطع نقل وحمل الحبوب كالأكياس وغيرها ، فهي إذاً ثروة مسخرة للانتفاع بها من أجل تلبية حاجات الأفراد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تعتبر الصوف كمادة أولية أساسية يُعتمد عليها في التجارة نظرا لتنوّعها بين الطويلة منها والقصيرة وبين الرقيقة منها والغليظة وبين المنسدلة منها والمجعدة، متأثرة بذلك بالمناخ والمناطق التي تربت فيها من مناطق جبلية وسهول أو مناطق سهبية أو مناطق صحراوية، فهي تُباع في الأسواق الأسبوعية بين القبائل وتُصدر أيضا عبر القوافل البرية أو عبر الموانئ من طرف أشخاص أو مؤسسات خاصة تمتهن مهنة التجارة بين الدول المنتجة المصدرة والدول المستوردة؛ فما مدى مساهمة هذه المادة الأولية في النشاط التجاري الداخلي والخارجي، وماهي مرتبتها التجارية ضمن قائمة المواد المصدرة نحو البلدان العربية والإفريقية أو البلدان الأوروبية؟

## 2. عرض

### 1.2 تعريف التجارة

**لغة:** تَجَرَ يَتْجُرُ تَجْرًا وتِجَارَةٌ: بَاعَ وشَرَى، وكذلك اتَّجَرَ، ورَجُلٌ تَاجِرٌ، والجمع تِجَارٌ، بالكسر والتخفيف، وتُجَّارٌ وتِجْرٌ[1].

**اصطلاحا:** التجارة هي تقليب المال والتصرف فيه مبادلة بالبيع والشراء طلبا للنماء والربح، وتطلق التجارة على المال المُتّجَر فيه، وتطلق ـ مجازاـ على العمل الذي يترتب عليه خير أو شر[2].

وفي مفهوم الإقتصاديين، التجارة هي احدى أوجه النشاط البشري الذي يقوم على التبادل؛ ومنافعها بالنسبة للأمم والأفراد محصورة في كونها توفر لهم ما لا يستطيعون انتاجه أو ما ينتجون بقلّة[3]، فالإنسان بمفرده لا يمكن أن يحقّق

[1]- ابن منظور، لسان العرب، ج5، القاهرة، د.ت، ص. 420.
[2]- عمارة محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ط.1، بيروت، 1993، ص. 114.

جميع حاجياته الزراعية والصناعية، ومن ثم وجب عليه التواصل مع الآخرين بعقد معاملات وتبادلات تجارية يستطيع من خلالها بيع الفائض من إنتاجه واقتناء ما ينقصه[4]، كما أنها تساعد على التقدم في الميادين الأخلاقية والثقافية والإجتماعية بفضل ما تتطلبه من احتكاكات مستمرّة.

وتشمل كلمة "تجارة" على معاني متعدّدة، فهناك التجارة المبنية على العلاقات الدولية وتقوم بها عادة المؤسسات الكبرى المنتشرة في سائر أنحاء العالم، يُطلق عليها مصطلح تجارة خارجية، وهناك التجارة المحلية التي تقوم بها في الغالب الهيئات الوطنية ذات نشاط محدود، كونها صناعة تجعل المنتوجات في متناول المستهلكين، وتسمى تجارة داخلية، إذ يقوم بها عادة أبناء البلد الواحد فيما بينهم، وتشتمل على المصنوعات والمنتوجات المحلية وعلى ما يستورد من البلدان الأجنبية[5].

والتجارة الخارجية ثلاثة أنواع، أحدها وهو الشائع، يعتمد على البيع والشراء، أي على التصدير والإستيراد، ويكون هذا النوع من اختصاص البلدان المنتجة. وثانيها، وهو نادر، يعتمد على الحمولة أي أن الهيئة فيه تشتري أو تصنع سفنا ومراكب تكتريها للتجار يحملون عليها بضائعهم، وتقوم بهذا النوع الثاني البلدان الفقيرة التي ليس لها ما تصدره ولكنها تملك الأساطيل كهولندا مثلا؛ وثالثها هو القرصنة أو السيطرة على البحار وفرض الضرائب على الأساطيل التي تستعملها، وتقوم بهذا النوع الثالث البلدان التي لها قوة بحرية ممتازة، مدفوعة إلى ذلك بعوامل مختلفة[6].

### 2.2 إنتاج الصوف في الجزائر خلال الفترة العثمانية:

كانت الجزائر خلال الفترة العثمانية بلدا فلاحيا بالدرجة الأولى، أرضها طيّبة وبها مراع شاسعة وسهول فسيحة مترامية الأطراف تكثر فيها منتوجات متنوّعة، كما أنها تنتج كميات هائلة من القمح والشعير والصوف والجلود والشموع، أما الصحراء، فهي سهل شاسع من الرمال فيه رقاع فسيحة مغطاة بالأعشاب تصلح للرعي زمن الشتاء[7]، وقد تميّز النشاط الإقتصادي في الأرياف وضواحي المدن بالطابع الزراعي والرعوي،[8] فكان سكان البوادي يمارسون الرعي على نطاق واسع، حيث تشكل قطعانهم المصدر الأساسي للثروة، وبما أن طبيعية البلد تتّسم بخصائص تضاريسية متنوعة، أدى هذا حتما إلى توّفر العشب الذي يشكل المصدر الأساسي لتغذية الحيوانات، وبالتالي وفرة الثروة الحيوانية[9]؛ وبانتشار هذا الطابع (الزراعي والرعوي) في الأرياف الجزائرية وتنوع تضاريس هذه المناطق، فقد جاء الإنتاج الزراعي متنوعا هو

[3]- الزبيري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر، 1972، ص.77.
[4]- دحدوح عبد القادر، عمران وعمارة مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2009-2010، ص. 165.
[5]- الزبيري، المرجع السابق، ص.77.
[6]- نفسه، ص.78.
[7]- نفسه، ص. 57.
[8]- زمام نور الدين، السلطة الحاكمة والخيارات التنموية بالمجتمع الجزائري 1962-1998، ط.1، الجزائر، 2002، ص.16.
[9]- شالر وليام، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب إسماعيل العربي، الجزائر، 1982، ص.33.

الآخر[10]، فاشتغل سكان المناطق الجبلية وسكان السهول القريبة من المدن بزراعة الخضر والفواكه بصفة عامة، إلى جانب تربية الماشية؛ كما اشتغل سكان السهول العُليا بزراعة الحبوب وتربية الماشية، فكانت المنطقة الواقعة بين سطيف وقالمة المنطقة الرئيسية للحبوب، وكانت ناحية وادي زناتي أخصبها، وكانت المنطقة الواقعة بين الأطلسين التلي والصحراوي وشط الحضنة والحدود المغربية هي المنطقة الرئيسية لتربية الماشية، خاصة الضأن منها، كما انصبّ اهتمام سكان جنوب الأطلس الصحراوي على تربية الماشية من أغنام وإبل وإنتاج التمور[11]، والواقع أن تربية الحيوانات كانت شائعة في كل الأرياف والمناطق الجبلية، إلاّ أن عددها كان محدودا، فلا نجد أسرة ريفية لا تملك عددا من الأغنام والأبقار والماعز والحمير والدواجن وخلايا النحل، فإن هذه الثروة رغم قلّتها، كانت مكملة لإنتاجها الزراعي والحرفي، وقد سمحت هذه الثروة الحيوانية بأن تكون الجزائر من الدول المصدرة لها، وللصوف والجلود، علاوة على المواد الزراعية الأخرى كالحبوب والزيت والشمع.[12]

كانت تُعرف بلاد المغرب منذ القدم بـ "بلاد الغنم" نتيجة لتوّفر العوامل الطبيعية والمناخية الملائمة لتربية الغنم، المصدر الأساسي للصوف؛ وقد انتشرت تربية الغنم عبر كل المناطق، من ضفاف البحر المتوسط إلى المناطق الصحراوية[13]، فكانت تعدّ أهم مصدر ثراء القبائل الرعوية[14]، حيث كانت تُشكل الخرفان النسبة الأكبر من قطعان الماشية، وقد ساعد السكان دقّة وجمال صوفها وخصوبة المراعي على مضاعفة أعدادها، فهم يتغذون من لحومها وحليبها ويكسبون أموالا من تجارة صوفها[15]، ولعل أجود أنواع الصوف هو صوف منطقة الهضاب الواقعة بين التل والصحراء الممتدة من تلمسان وتاهرت غربا إلى الزاب شرقا، ولذا كثرت مشاغل غزل الصوف بمدن بونة والجزائر وبرشك ووهران وقلعة بني حماد وتيهرت وتلمسان[16].

1.2.2 **أنواع سلالات الغنم:** صُنّفت الأغنام الجزائرية إلى سلالتين كبيرتين، السلالات الرئيسية والسلالات الثانوية.

– **السلالات الرئيسية،** تتمثل فيما يلي:

- **سلالة اولاد جلاّل:** وتسمى أيضا السلالة العربية البيضاء، وغنم اولاد جلال، وهي من أهم السلالات الموجودة في الجزائر، وتنتشر عبر جميع مناطق البلاد تقريبا ماعدا بعض مناطق الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وهو الصنف

[10]- مكحلي محمد، "الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827م"، مجلة علوم إنسانية، مجلة إلكترونية محكمة **WWW.ULUM.NL** ، هولندا، العدد31، السنة الرابعة، نوفمبر 2006.

[11]- عبّاد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، الجزائر، 2012، ص. 336.

[12]- شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (926 - 1246 هـ / 1519- 1830م)، ط. 1، الجزائر، 2009، ص.112-113.

[13] -Golvin, Lucien. Les arts populaires en Algérie, T.I., Alger, 1953, p.35

[14] -Boudicour, L., La colonisation de l'Algérie, Paris, 1856, p. 27.

[15] -L'Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786, 1ère partie, Paris, 1789, p.248.

[16]- بورملة خديجة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أحمد بن بلة وهران، وهران، 2017-2018، ص. 73.

الحقيقي للمناطق الإستبسية والأكثر ملائمة لحياة الترحال التي يعيشها سكان تلك المنطقة[17]، يتميز بصوف أبيض ورقيق، وهي ثلاث أنواع، صنف الحضنة، بيضاء أو سوداء، والصنف الزناتي، متعرّجة ذات خيوط طويلة أو متوسطة، وصنف خنشلة وعين البيضاء (الجنوب القسنطيني) ذات نوعية رديئة لاحتوائها على الكثير من الهلب*[18].

- **السلالة الحمراء أو بني إيفيل:** تحتل المرتبة الثانية بعد سلالة اولاد جلال، وهي سلالة بربرية، قصيرة القامة، رأسها وأطرافها بنيّة اللون المائل إلى الأحمر القاتم القريب من الأسود، صوفها أبيض تتخلله بعض الخصلات البنّية–الحمراء، تنتشر في المناطق الغربية[19].
- **سلالة الرمبي:** غنم ذو رأس أحمر أو بنّي وصوف بنّي، وهو بمثابة أكبر السلالات حجما في الجزائر، وتتميّز بالقوة والإنتاج.

– **السلالات الثانوية،** تتمثل فيما يلي:

- **سلالة البربري:** وتعتبر أقدم سلالة في بلاد المغرب، نجدها في المناطق الجبلية لمنطقة القبائل وضواحيها[20]، وتتميّز بالجزّة البيضاء أو الشقراء، وناذرا سوداء، صوف طويل وصلب وغليظ، جزّاته مفتوحة وخيوطه خشنة[21].
- **سلالة الضأن المغربي (barbarine):** ينتشر خاصة في منطقة سوف، يتميّز بذيله الغليظ وجزّته (الصوف) المفتوحة ذات الخيوط الخشنة مما تصعّب عملية النسج[22].
- **سلالة الدمن:** تنتشر في الصحراء، نصادفها في واحات المناطق الجنوبية الغربية (القرارة وتيديكلت وتوات) وتعرف بسلالة تافيلالت، صوفها قصير ولونها أسود أو بنيّ قاتم[23].
- **سلالة التوارق وقورارة:** تعيش في الصحراء وتربى من طرف سكان الطوارق (الهقار والتاسيلي) وتتميّز بصوفها القصير جدا والصلب ويُطلق عليه اسم شعر[24].

### 2.2.2 أنواع الصوف:

يُصنف الصوف في الجزائر من النظرة الأولى إلى صنفين رئيسيين مختلفين، الصنف الأول منتشر عبر أغلب المناطق حيث يُطلق عليه الصوف العربي، والصنف الثاني يرتكز أساسا في جبال منطقة القبائل، ويُطلق عليه الصوف

[17] -Soltani Nadjmeddine, Etude des caractéristiques morphologiques de la race ovine dans la région de Tébessa, mémoire de magistère en production animale, Faculté des sciences de la nature et de la vie, département d'agronomie, université Ferhat Abbas Sétif, Sétif, 2011, p. 26.

*- شعر أبيض غليظ يتخلّل الصوف، يطلق عليه بالعامية شعر أو زغب الكلب.

[18] Golvin, L., Op.Cit., p.36.

[19]- Soltani N. Op.Cit., p. 29.

[20] -Sagne, J., L'Algérie pastorale, ses origines, sa formation, son passé, son présent son avenir, Alger, 1950, p. 116.

[21] -Golvin, L. Op.Cit., p.38

[22] -Ibid, p.37

[23] -Soltani N. Op.Cit., p. 32.

[24] -Ibid.

البربري، وقد اختلطا هذان الصنفان نظرا لتهجين سلالات الغنم فأنتجت سلالات أخرى وتنوّع كبير في الأصواف واختلافها[25]، لذلك فقد صنّفت هي الأخرى إلى عدّة أصناف، وهي كالتالي:

– **صوف رطب:** ويقصد به صوف من النوع الممتاز، إذ يكون ناعم وذو شعر رقيق ومجعّد، نتحصّل عليه من أغنام المرينوس (mérinos) ** أو الأغنام المهجّنة بأغنام المرينوس.

– **صوف أحرش:** ويقصد به صوف خشن وطويل أو متوسط الطول لكنه غير مجعّد وذو ملمس أحرش.

– **صوف زولي أو زولاني:** ويقصد به الصوف المنسدلّ، ذو شعر طويل وأحيانا طويل جدا، خشن غير خفيف وغير مرن، لكنه محبذّ لتسدية خيوط السدى[26].

هذا، وقد صنّف Gustave Couput الصوف إلى صنفين، صوف قصير وصوف طويل بغض النظر عن الرقّة، نظرا لتأثير المناخ على طوله وقصره، حيث يقول أن الصوف القصير يكثر انتشاره في مناطق الهضاب العليا مثل بسكرة وبوسعادة والجلفة وبوغار وبوخاري وآفلو، ليصبح أطول على جلد نفس النوع من الأغنام إذا ربيت في المناطق التي تتوفر على العشب الكثيف ولا تحتاج إلى ضرورة الترحال، مثل المنطقة الوسطى والغربية لمقاطعة قسنطينة وجزء من وسط مقاطعة الجزائر الوسطى وشرق مقاطعة وهران[27].

### 3.2 **النشاط التجاري:**

لعل تربية الأغنام والماعز تصدرتا قطاع تربية الماشية لعلاقتهما بالأسواق الخارجية، وتعود أهمية تربية الأغنام لا إلى إنتاج الجلود فحسب، بل أيضا إلى إنتاج الصوف وبعض المواد المصنّعة كذلك، فلم تقتصر تجارة البلاد خلال الفترة الوسيطة على تبادل مختلف المواد الأولية النباتية والحيوانية فقط كالصوف والحرير والقطن والكتان، وإنما تعدّت ذلك إلى منتجات صناعية وحرفية كذاك، فكانت تجارة نشطة سواء مع البلدان العربية أو بلدان البحر المتوسط، دليل على خصوبة أراضيها وتوفرها على ثروات طبيعية وحيوانية مختلفة، أنشأت صناعات أنعشت اقتصادها وتجارتها الداخلية والخارجية، منها المنسوجات الصوفية؛ هذا ما تؤكّده بعض المصادر التاريخية وأوصاف بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب للعصور الإسلامية[28].

[25] -Gustave Couput, Les laines et l'industrie lainière de l'Algérie à l'exposition de 1889, Alger, 1889, p.,11.

** - هو ضأن بني مرين تشتهر بصوفها الجيّد والكثيف، يعود الفضل للدولة المرينية في إدخالها إلى الأندلس، فهجن هناك وأنتج هذا النوع ومازالت تُنسب لهم.

[26] -Golvin, L., Op.Cit, p.43.

[27] -Gustave C., Op.Cit., p.11.

[28] - مرزوق ع، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، د.ت.، ص. 120.

أشار إبن حوقل إلى أنه من بين المواد التي كانت تصدر إلى بلاد المشرق، الحرير وأكسية الصوف الرفيعة والدنيئة إلى جباب الصوف وما يعمل منه[29]، كما أشار البكري إلى أن بمدينة مستغانم عيون وبساتين وطواحين ماء وينبت فيها القطن فيجود أي ذو نوعية جيّدة؛ كما يذكر بخصوص أهل المسيلة أنه يجود عندهم القطن[30].

أما ياقوت الحموي، فقد تكلّم عن البسط الجليلة المحكمة الصنع يقيم البساط منها مدة طويلة، والتي كانت تصنع في منطقة تبسة[31]، كما يصف المقدسي أهل الرساتيق[32] من البربر بأنهم يلبسون أكسية، ويصفهم في موضع آخر بأنهم ببرانس سود، يصفها البكري بأنها حصينة لاينفذها الماء، وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغالون بها في أثمانها، وكانت تصنع ملابس رائعة في قلعة بني حماد وبجاية مخصصة للطبقة العليا من المجتمع، وعمائم من الكتان الموشى بالذهب، كما كان يعمل من الصوف، كل عجيب حسن بديع من الأزر التي تفوق القصب ويبلغ ثمن الإزار ثلاثين دينارا وأربعين.[33]

ويذكر ابن مرزوق في سياق حديثه عن خصال أبي الحسن الحميدة، أنه كان يؤتى بثياب الصوف التلمسانية الخالصة، فيختار أجودها ويعطيه لمجالسيه[34]؛ هذا دليل على أن بمدينة تلمسان كان يُصنع نوع فاخر من النسيج إلى جانب النسيج البسيط الموجود عبر ربوع القرى والأرياف؛ أما ابن خلدون، فقد أفادنا أن الصنائع بالمغرب الإسلامي قليلة وغير مستحكمة، ماعدا نسج الصوف وصناعة الجلد ودبغه التي تعتبر من بين الصنائع المستحكمة مقارنة مع الصنائع الأخرى، وأن لباس سكان المغرب وأكثر أثاثهم من الصوف كالأكسية المعلمة ويضعون عليها البرانس الكحل[35]، كما ذكر أنه من بين الأغراض التي كانت ضمن هدية السلطان أبي الحسن إلى المشرق، قطع صوفية محكمة الصنع كالثياب والأكسية والبرانس والعمائم والأزر المعلمة (الطراز) وغير المعلمة وقطع حريرية أخرى[36]؛ كما ذكر حسن الوزان مدن عديدة من بلادنا أشاد فيها نظام أسواقها وتعدد حرفها، فقال عن مدينة قسنطينة، أن جميع الحرف فيها مفصول بعضها عن بعض، وفيها عدد كبير من التجار يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا، أما عن مدينة ميلة، ففيها عدد كبير من الصنّاع وخصوصا من يعملون في نسج الصوف الذي تصنع منه أغطية الأسرة[37]، هذه شهادة قيّمة تفيدنا عن النظام الذي كان سائدا في الأسواق ودرجة التطوّر التي وصلت إليها صناعة النسيج في المناطق الشرقية.

[29]- ابن حوقل، صورة الأرض،، بيروت، 1992، ص. 95.
[30]- البكري أبي عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، القاهرة، د.ت، ص. 69.
[31]- الحموي، ي.، معجم البلدان، ج.1، بيروت، 1984، ص. 625.
[32]- أهل الرساتيق: مفردها رستاق، وهي المواضع التي فيها زرع وقرى أو منازل مجتمعة.
[33]- جودت، ع.، المرجع السابق، ص. 91.
[34]- ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الجزائر 1981، ص.129.
[35]- ابن خلدون ع.ر.، تاريخ بن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، بيروت، لبنان، 2000، ص. 116.
[36]- ابن خلدون ع.ر.، المنتخب من المقدمة وكتاب العبر، الجزائر، 1947، ص.91.
[37]- حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.2، ج. 2، لبنان، 1983، ص.56- 60.

وإضافة إلى وصف هؤلاء الرحالة والمؤرخين، تدل بعض الوثائق إلى أنه في بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، استعانت إمارة جنوة بأصواف مدن عنابة وبجاية وتونس لتزويد مصانعها لإنجاز الألبسة الصوفية وبأثمان جدّ معقولة[38]، حتى أصبح الصوف الأسود الرقيق الجيد لأغنام بجاية "علامة مميزة" تشير في الشمال الغربي لأوروبا بداية من القرن 08هـ/14م إلى صنف معين من أصناف الصوف يسمى صنف بجاية، حتى وإن لم يأت من بجاية[39].

كما راجت وازدهرت التجارة البحرية لإمارة البندقية بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، نتيجة سيطرتها على مناطق بحرية عديدة مجاورة، وتطوير أسطولها البحري الحربي والتجاري وتنوّع سفنه، حيث أسست سنة 844هـ/1440م نظاما خاصا بتنقّل السفن سنويا عبر مرافئ إفريقيا والتي كانت تسمى "سفن المغرب"، فقبل كل رحلة كانت كل سفينة من هذا الأسطول تخضع لعقد استئجار عن طريق عملية المزاد، فتعطى العملية للذي يدفع أكثر، وتسجّل شروط الإيجار كتابيا على دفتر العقد، فبالمقابل تزوّد هذه السفن المملكة بكل المواد الأولية الضرورية لمختلف صناعاتها من هذه المناطق كثروات الشرق الأدنى والأوسط عن طريق مصر، ومواد أخرى من قبرص ولبنان وجنوب آسيا والقسطنطينية التي تزودها بمنتجات دمشق والفرس وشمال آسيا والبحر الأسود، أما بلدان المغرب فكانت تزوّدها بالدرجة الأولى بالملح والحبوب والشمع والأصواف والجلود[40]، ممّا يدل بطبيعة الحال أن مادة الصوف كانت لها مكانة ضمن قائمة المواد الأساسية المصدّرة.

وكانت إمارة فالنسيا بإسبانيا تستورد من بلاد المغرب مواد أولية وبعض المنتجات الحرفية، ولو بنسبة ضئيلة، فزوّدتها سنة 894هـ /1488م بـ 85% من وارداتها من مادة الكتان، كما زوّدتها سنة897هـ /1491م بستة أكياس من القطن مثّلت 7,5% من مجموع أكياس القطن المستوردة وبخمسة أكياس من الصوف، أي بنسبة 8% من المجموع وفي سنة 900هـ/ 1494م وصلت إلى ثماني وأربعون كيسا من القطن أي بنسبة 17% من المجموع وخمسة عشر كيسا من الصوف أي بنسبة 7% من المجموع؛ ؛ أما فيما يخص المنتجات الحرفية، فكانت تصدّر لها بعض القطع النسيجية كالبرانس والزرابي، فقد زوّدتها في الفترة الممتدة مابين 858 هـ/ 1454م و 927 هـ/ 1520م، بسبعة وعشرون برنوسا بقيمة تسعون ليرة[41]، ممّا يدلّ على جودة مادة الصوف، إضافة إلى جودة القطع المنسوجة التي أصبحت البعض منها تصدّر نحو بلدان أجنبية.

[38] −De Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique Septentrionale ou Magreb avec les nations chrétiennes au moyen âge, Librairie de Firman-Didot et C[ie], Paris, 1886, p.212.

[39]- بورملة خديجة، المرجع السابق، ص. 72.

[40] −De Mas Latrie, Op.Cit. p. 463.

[41] −Guiral Jacqueline, «Les relations commerciales du royaume de valence avec la Berbérie au XI[e] siècle», in Mélanges de la Velázquez, T.10, 1974, p. 112- 113.

أما خلال الفترة العثمانية، فقد كانت تتوفر بالجزائر أعداد ضخمة من الحيوانات كالأغنام والماعز والأبقار والخيل والبغال والحمير، وقد وفرت هذه الحيوانات كميات كبيرة من الصوف والوبر التي كانت تستعمل في صنع الخيام ونسج البرانس والأردية، أو تصدر إلى الخارج بواسطة التجار الأوروبيون واليهود، كما كانت هذه الحيوانات مصدر العيش الرئيسي في المناطق السهبية كمنطقة النمامشة التي كانت تعتمد أساسا على تربية الأغنام والجمال والتي كانت تقدر بـ32000 خروف و1000عنزة و1000 بقرة و2000 بغل و700 حصان وعدد ضخم من الجمال،[42] أما منطقة اولاد نايل، فقد كانت تتوفر على 3280 رأس من البقر و197500 رأس من الغنم، وقد بلغ عدد الأغنام في المقاطعات الثلاثة 6.850.205 رأس من الغنم و 3.384.902 رأس من الماعز[43].

إضافة إلى هذه الثروة الحيوانية المتوفرة في أغلب مناطق البلاد، فإن المنتجات الحرفية كانت هي الأخرى منتجات عديدة ومختلفة، تستعمل معظمها لتلبية حاجيات الأسر وتسوّق البعض منها في الأسواق الداخلية، إضافة إلى ما تنتجه بعض المناطق من قطع تقدّم كهدايا أو تفرش في بلاط الحاكم أو تُصدر نحو الخارج؛ هذا ما يُدعّمه نص الشريف الزهّار الذي يتحدث فيه عن الهدية التي قدّمها محمد باشا المجاهد سنة 1179هـ / 1765م للحاكم العثماني، فيقول: " *فإذا خرج الباي بعد الغذاء من اليوم الأول، فإنه يرجع لداره ويحضر هدية الأمير...وحياك القرمز صنعة تلمسان.. أما هدية الخزناجي، فمن بين الأغراض التي قدّمها، هناك كسوة وحايك قرمز، وبرانس زغداني، وحايك حرير*"؛ ويذكر في موضع آخر أنه "*لما حان وقت صلاة المغرب، فرش الخدم الزرابي للإمام والباي ولسّيدهم، أما بقية الحضور فيصلون على البساط الأصلي*"[44]. أما حمدان خوجة الذي زار بعض القرى الكبيرة الواقعة في الجبال الوعرة، كجبال فليسة وزواوة وبني عباس ووادي بجاية، فذكر أن سكانها كثيرو الإشتغال بالصناعة كصناعة الأسلحة النارية واستخراج خامات المعادن، كما تشمل صناعتهم على الخصوص صنع البرانس والأغطية التي يمكن استعمالها في المدن لأنها من الصوف الجيّد، واشتهرت مدينة معسكر بنسج البرانس السوداء ذات اللون الطبيعي والتي كانت تستعمل في كل أنحاء إيالة الجزائر، كما كانت تصدر إلى مصر وتركيا؛ أما عن الرحّل، فقال عنهم أنهم أثناء الترحال، يحملون على ظهور الجمال الصوف والسمن ومواد أخرى، ويعتبر صوفهم من أجود الأنواع وهو يشبه المرينوس إلى حد كبير[45].

من خلال هذه الشهادة، يتبيّن لنا أنه إضافة إلى توفّر المواد الأولية في هذه المناطق، هناك صنائع كانت قائمة هنا وهناك، والتي بالرغم من كونها ذات نسبة ضئيلة إلاّ أنها استطاعت أحيانا أن تتجاوز حدود بلدانها، وأن تصل إلى بلاط الحكام المسلمين وإلى أسواق البلدان الأوروبية، فكانت تجد استحسانا من كلا الطرفين.

### 1.3.2 **التجارة الداخلية:**

[42]- سعيدوني، ناصر الدين وبو عبدلي، المهدي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ج.4، الجزائر، 1984. ص. 60.
[43] -Boudicour, L., La colonisation de l'Algérie, Paris, 1856, p. 27.
[44]- أحمد الشريف الزهار، *مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار*، 1168-1246هـ /1754-1830م، الجزائر، 1974، ص.40-42.
[45]- خوجة، ح.، المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، ط 2، الجزائر 1982، ص. 67-97.

تركزت التجارة وارتبطت بالأسواق الريفية التي تحوّلت إلى مراكز تجارية للجهات القريبة منها، وقد أصبحت المدن المهمّة محاور رئيسية للنشاط التجاري، حيث ساعدها على ذلك كونها مقرا للجهاز الإداري المركزي والإقليمي، ولاستقرار قسم مهمّ من الجند والتجار بها، واتصالها بالخارج، فهي محطات للتصدير ومستودعات للإنتاج المحلي ومراكز لاستيراد البضائع والسلع من الخارج، وهذا ما ساعد على تطوير التجارة وانتشار الأسواق خاصة بالعواصم[46].

والتجارة في الجزائر، كما هو الشأن في جميع البلدان، نوعان: داخلية وخارجية، تُباع بضائع الداخلية في الأسواق المحلية أو الجهوية وفي الحوانيت والمعارض، أما التجارة الخارجية، فكانت تَسوّق إلى أوروبا عن طريق الموانئ، وعن طريق القوافل مع بلدان إفريقيا.

**- الأسواق:**

كانت تتم المبادلات التجارية الداخلية عن طريق أسواق يومية أو أسبوعية أو سنوية، بين الريف والمدينة، وبين المناطق الجبلية والسهلية، وبين التل والجنوب، وكانت الاختلافات بين المناطق من حيث الإنتاج الزراعي والإنتاج الصناعي، سببا أساسيا في قيام هذه التجارة؛ ففي المدن كانت تتوزع الأسواق اليومية عبر الشارعين الرئيسيين، حيث تعجّ حركة كبيرة نتيجة الإنتشار الهائل للدكاكين، أماكن تبادل السلع والفنادق والمقاهي والحمامات[47]، ينظمون ضمن هيئات يشرف على كل واحدة "أمين" يجمع الرسوم المفروضة على كل واحد، ويسلمها للمصالح الإدارية[48]، ومن أهم المراكز التجارية التي تتم فيها التبادلات الداخلية، مدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان [49]، وقد شهد هذا النوع من السوق في المدينة الإسلامية تطورا مع الزمن[50].

أما عن الأسواق الأسبوعية أو المحلية تعقدها مختلف القبائل في أيام معينة من الأسبوع، حيث كانت تتقاسم أيام الأسبوع بحيث تخص كل قرية بيوم معيّن[51]، ولازالت قرى ومدن تسمى باسم يوم سوقها، مثل خميس مليانة وثنية الأحد والأربعاء وأربعاء بني يراتن وغيرها[52]؛ وكان الهدف من هذا التنظيم هو السماح لتسوق أكبر عدد من التجار والناس على اختلاف قراهم وقبائلهم[53]، فكانت تقع أغلبيتها في المناطق الريفية في ساحة كبيرة في بعض القرى المركزية أو خارج المدن، وكانت الإدارة تقيّمها وتنظّمها وتراقبها لتحصل على الرسوم. وقد كان لقبائل الرحالة دورا كبيرا في تنشيط الأسواق

[46]- سعيدوني، ناصر الدين، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر- تونس- طرابلس الغرب) من القرني العاشر إلى الرابع عشر الهجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي)"، في حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية الحادية والثلاثون، الكويت، 1431هـ/ 2010 م، ص.38.

[47]- نفسه، ص. 71.

[48]- الزبيري، المرجع السابق، ص. 64.

[49]- سعيدوني ن.، المرجع السابق، ص. 71.

[50]- دحدوح ع.، المرجع السابق، ص. 246.

[51]- الزبيري م، المرجع السابق، ص. 112.

[52]- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، 2006، ص. 280.

[53]- دحدوح ع.، المرجع السابق، ص. 246.

الأسبوعية كقبيلة اولاد سيدي الشيخ ولرباع واولاد نايل والنمامشة وغيرها، فيتمّ فيها تبادل منتوجات الصحراء وإفريقيا والمتمثلة أساسا في التمور والماشية والأصواف وريش النعام بمنتوجات التل المتمثلة أساسا في الحبوب والزيوت والتين[54]، كما اختصّت بعض الأسواق ببيع المواشي وحيوانات الحمل كالبغال والحمير، كسوق بوفاريك بمتيجة الذي كان معروفا ومقصودا يوم الإثنين[55].

أما بالنسبة للأسواق السنوية، فهي ترتبط في غالبية الأحيان بقداسة مكان ما كضريح أو مقام وليّ صالح، وتنعقد في تاريخ يتزامن مع حدث هام بالنسبة لصاحب الضريح، مرّة في السنة، ويقصد هذا السوق أصحاب القرى وربما حتى المدن المجاورة والقريبة بقصد البيع والشراء من جهة، والزيارة والتبرّك من جهة أخرى[56]، يتم فيها تبادل منتوجات المناطق الجبلية بمنتوجات المناطق السهلية، فالكثير منهم يبيعون مثلا الزيت مقايضة بالصوف،[57] أو بين المناطق الشمالية والجنوبية، كمقايضة الحبوب بالتمور، وقد كانت المقايضة هي أفضل طريقة يستعملها السكان في هذه التجارة، لأن النقود الذهبية لم تكن منتشرة بكثرة، ولأن المستهلك يفضل الحصول على ما يحتاج إليه مباشرة دون المرور بعملية التحويل المعقدة، التي لا توفر الضمانات الكافية للأطراف المتبادلة[58].

### 2.3.2 **التجارة الخارجية:**

تُعتبر العلاقات التجارية من بين النشاطات الضخمة للبلاد سواء كانت مع البلدان الأوروبية أو مع البلدان المتوسطية المجاورة ومع بلاد السودان أيضا[59]؛ وقد تميّزت هذه العلاقات في بداية الحكم العثماني بتذبذبها بسبب سيطرة المدن الإيطالية والإسبانية على تجارة السواحل الجزائرية وحتى على الداخلية، وسيطرة الإسبان على بعض المواقع في ساحل الجهة الغربية وسيطرة الأتراك على باقي البلاد والنشاط المتزايد للقرصنة[60]، إلاّ أن بعد ذلك أصبحت التجارة من أبرز عناصر الثروة، وكانت الشعوب تعتمد عليها لترقى إلى مصاف الدول العظمى، كما كانت مصدرا من أهم مصادر تنمية الخزينة الجزائرية ذات الشهرة العالمية آنذاك، فكانت قادرة على تغطية جميع المصاريف التي تسببت فيها الحرب التي أصابت أوروبا في العشر سنوات الأخيرة. أما الأهالي في شمال المنطقة، فإن بعضهم كان يستفيد من العطايا والمنح التي تخصصها لهم الهيئات التجارية لتكتسب ودهم ولتحفظ مصالحها وأرباحها، بينما يجد الفلاحون في هؤلاء التجار الأجانب منافسا للبايلك يبيعون لهم بضاعتهم بأسعار أغلى، وبذلك يتمكنون من دفع الضرائب المفروضة عليهم ومن سد حاجاتهم المختلفة. وإذا انتقلنا إلى الجنوب، وجدنا أن هناك قبائل بأكملها تعيش بما تدره عليها القوافل التجارية

[54]- عبّاد، ص.، المرجع السابق، ص. 339.
[55]- نور الدين ع.، المرجع السابق، ص. 280.
[56]- دحدوح ع.، المرجع السابق، ص. 246.
[57]- عبّاد، ص.، المرجع السابق، ص. 339.
[58]- الزبيري م، المرجع السابق، ص. 64.
[59] -Bertholon L. et Chantre E., Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale, Tripolitaine, Tunisie, Algérie, T.1, Lyon, 1913, p.567.
[60]- عبّاد ص.، المرجع السابق، ص. 339.

التي يقودونها من مكان لآخر، ويحمونها من الضياع ومن قطاع الطرق[61]؛ أما عن أصحاب التجارة الخارجية مع أوروبا، فكان يقوم بها الكراغلة والأندلسيون والمسيحيون وخاصة اليهود الذين كانت تربطهم مع أوروبا ومرسيليا وليفورن وجنوا وموانئ انجلترا، علاقات قديمة[62].

وفيما يخص السلطات، فإن الحكّام على مختلف درجاتهم، يجدون في الهيئات التجارية مصدر ثروة يستعملونه في استتباب الأمن وشراء المناصب، وفي هذا الصدد تذكر المصادر أن باي قسنطينة مثلا، كان يدفع للداي حوالي 150000 بياستر كل سنة، وهو مبلغ ضخم يصعب جمعه، لذلك كان يتعاطى التجارة فيشتري الأصواف والقمح والجلود، ثم يبيعها لسائر المؤسسات الأجنبية بأرباح كبيرة جدا، فكان يشتري الصوف بسعر 8 بياستر للقنطار ويبيعه للشركة الفرنسية بـ 10 بياستر، ويشتري القمح بأثمان تتراوح ما بين 7 و12 بياستر ثم يبيعها بأسعار تتراوح ما بين 62 و30 بياستر للحمولة، كما كان يفرض رسوما جمركية على مختلف التجار المصدريين والمستوردين؛ وعلى العموم، كانت تتم المبادلات التجارية بطريقة بدائية لا تخطيط فيها ولا مراقبة للميزان التجاري، وإنما كان السكان يبيعون كل ما فاض من انتاجهم نقدا إن أمكن، ومقايضة في غالب الأحيان وخاصة في العلاقات مع إفريقيا والمشرق، ويشترون بالمقابل كميات من البضائع لاستهلاكهم الخاص أو للتجارة فيها مع الشعوب الأخرى، أما المواد المتداولة في هذا الميدان، فخليط من الكماليات والضروريات[63].

وتتمّ التجارة الخارجية عن طريق المسالك البرّية أو عن طريق الموانئ.

**- الطرق البرية:**

ارتبطت أغلب المدن الرئيسية مثل تلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة وورقلة وغيرها بالتبادل التجاري المحلي عن طريق القوافل التي جعلت منها محطات تنطلق منها نحو بلاد المغرب الأقصى وأقطار المشرق وأقاليم السودان[64]، فكانت تتمّ التجارة مع هذه البلدان المجاورة والبلدان الإفريقية أو تجارة القوافل من خلال الطرق البرية، والتي تنقسم إلى طرق سلطانية وأخرى جهوية، السلطانية هي الطرق التجارية الكبرى، ويوجد منها في الجزائر تسع، تربط البلاد بكل من تونس والمغرب وليبيا والسودان، منها طرق عرضانية تربط المناطق الشرقية بالمناطق الغربية، أي من ليبيا وتونس إلى المغرب، مرورا بنقاط أو مراكز تجارية عديدة، ومنها الطرق القطرية التي تربط المناطق الشمالية بالمناطق الصحراوية والإفريقية، مرورا هي الأخرى، بمراكز تجارية عديدة أيضا؛ أما عن وسائل النقل، فهي تختلف من مكان لآخر، ففي التل يستعمل

[61]- الزبيري، المرجع السابق، ص. 77 و 113.
[62]- طيان ش.، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني –دراسة أثرية فنية- أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2007-2008، ص. 71.
[63]- الزبيري، المرجع السابق، ص. 114.
[64]- سعيدوني، ن.، الأوضاع الاقتصادية ...، ص.39.

التجار الجمال والبغال للسلع، والخيل للأشخاص، وفي الصحراء يستعملون الجمال والحمير المصرية لهما معا، وتتمّ هذه العملية عن طريق القافلة التي تضمّ مجموعات متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق، والتي لا بد لها من دليل أو أكثر للبلوغ إلى غايتها، أو عن طريق النجع أو القبيلة السيارة التي تتنقل بكاملها، لذلك هي أبطأ من الأولى ولكنها أضمن بالنسبة للتجار[65]، فارتبطت تجارة مدينة قسنطينة مثلا بقوافل تونس والصحراء، فكانت تستورد الأقمشة الحريرية والخيوط الذهبية والأدوية والجواهر والسجاد العجمي، وتصدر مقابلها البرانيس والجلود والحياك والمواشي وغيرها. وتماثل قسنطينة من حيث النشاط التجاري مدينة تلمسان التي استقطبت تجارة المغرب الأقصى والجهات الغربية من الجزائر؛ هذا، إضافة إلى بعض الواحات الصحراوية التي كانت تؤلف محطات تجارية مهمة وأسواق تبادل رئيسية مع بلاد السودان واقليم التل مثل ورقلة وتوقرت وقرى وادي ميزاب[66]، فكانت لهذه المدن أحيانا دور الوسطاء المتتاليين وأحيان أخرى محطّات تجارية، أما بالنسبة للمنطقة الشرقية للمغرب الإسلامي، فقد كانت كل من غدامس وغاط أكبر أسواق أو المحطات التجارية للقوافل التي تتاجر بين السودان والساحل، حيث يتدفّق التجار المغاربة وهؤلاء التجار القادمون من السودان والمناطق الصحراوية، فنصادف في أغلب الواحات الصحراوية خاصة في نواحي بنغازي وطرابلس وقابس، عدد هائل من تجار القوافل السودانيين[67]، وما ميّزت هذه الحركة هي كونها تجارة مُنتظمة لكنها ضعيفة نتيجة انعدام الوسائل الإئتمانية وقلّة استعمال العملة في عملية البيع والشراء، واستعمال غالبا عملية المقايضة، إضافة إلى قلّة السلع وقلّة القوافل التي تنطلق مرّة واحدة كل سنة وسنتين، وسلك المسالك القديمة الغير منتهجة منذ القرن الثامن عشر وقبل ذلك، مما أدى بطبيعة الحال إلى عدم توفّر كل السلع داخل الدكاكين. تتمثل أهم السلع التي تقوم باستيرادها في ريش النعام والقليل من تبر الذهب (المادة الخام للذهب) والسنا[68] (séné) وصمغ السودان والعبيد بصفة خاصة، والتي تُعتبر السلعة الأكثر ربحا بالنسبة للدول الثلاث.[69]

أما عن العلاقات التجارية مع بلدان الحجاز، فكانت تُعتبر قافلة الحج السنوية هي أكثر القوافل أهمية فهي تتكوّن من آلاف الحجيج وتقود معها عدد هائل من الإبل، تنطلق من المغرب ثم تعبر الجزائر وتونس فيتضخّم عدد أفرادها، لتستريح في ليبيا ثم تواصل طريقها حتى الإسكندرية وهذا لمدة 40 أو 50 يوما لتصل أخيرا إلى مكّة، هنالك يشارك أفرادها في المعرض الضخم الذي يتبادل فيه المسلمون القادمين من كل الأقطاب سلعهم، فيستبدلون الأقمشة الموصلية والحريرية والقطع الثمينة والعنبر والتوابل بالأنسجة الصوفية والنعال الجلدية والشاشيات وحتى العبيد، وفي

[65]- الزبيري، المرجع السابق، ص. 68. أنظر أيضا: Bertholon L. et Chantre E., Recherches…, p.570

[66]- سعيدوني، ن.، المرجع السابق، ص. 72.

[67] -Bertholon L. et Chantre E., Op.Cit., p. 568- 571.

[68]- السنا: أو السنامكي، وهو نبات عشبي معمّر لايزيد ارتفاعه عن مترين، يُستعمل لأغراض طبية.

[69] –Valensi Lucette, Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830), Flammarion, Paris, 1969. p. 58.

طريق العودة يُحمّلون معهم كذلك الحرير الخام أو القطن من القاهرة؛ فتُعتبر هذه التجارة مُربحة لكونها أنها تقوم بجلب مواد قليلة العدد والحجم لكنها مواد الترف ذات نوعية جيّدة وغالية الثمن[70].

هكذا، كانت تجارة القوافل الكبيرة إذا تحت قيادة التجارة الصحراوية، وقد ساهمت في ازدهار بلدان المغرب العربي بعد اندماج هذه الأخيرة في المجال الإقتصادي للعالم الإسلامي، حيث أصبحت بفضل موقعها المتميّز منطقة عبور لهذه التجارة، فما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر، كان تيار الذهب الخالص المتّجه نحو البحر الأبيض المتوسط يتدفّق إليها، غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلا حيث بدأت سيرورة الإنحطاط تتغلغل داخل بلدان المغرب مع نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر حينما شرعت هذه التجارة في التدهور والإنحطاط[71] بفعل انحراف طرق الذهب نحو مصر عن طريق قوافل الحج، ثم سيطرة البلدان الأوروبية على سواحل القارة الإفريقية وتحويلها لطرق التجارة نحو سواحل المحيطين الأطلسي والهندي[72]؛ ومنذ القرن السابع عشر، وبسبب عوامل سياسية واقتصادية عديدة والتي رافقت انحطاط التجارة الصحراوية، بدأت الحرف ومختلف الأنشطة التقليدية الجزائرية، وبالتالي الإقتصاد الحضري، في التدهور لصالح المنتجات الأوروبية، ثم لم يقتصر الأمر على الحواضر فقط، بل امتدّ هذا التأثير إلى داخل الأرياف كذلك[73].

**- الموانئ:**

في إطار التبادل التجاري الخارجي، أصبحت المدن الساحلية المهمة مثل الجزائر وعنابة وستورة والقل والقالة وجيجل وبجاية وميناء الجزائر ووهران والمرسى الكبير، على اتّصال مباشر مع العديد من الموانئ المشرقية لا سيما إسطنبول وراغوسطة (دوبروفنيك) وإزمير وبيروت والإسكندرية، فكانت هذه الموانئ ممتازة ومنتشرة على شاطئ طوله حوالي 240 ميلا مقابل لسواحل اسبانيا وفرنسا وإيطاليا[74]، ولم تكن الجزائر تملك أسطولا تجاريا، فالتجارة الخارجية عبر البحر كانت تعتمد في نقل البضائع على السفن الأوروبية، وكانت فرنسا هي المتعامل الرئيسي مع الجزائر، وكذلك هي المسيطرة على النقل بين الجزائر وباقي دول العالم، فكانت صادراتها مواد أساسية للسكان كالقمح وارداتها أغلبها كماليات لا تلبي حاجات السكان بل كانت تلبي رغبة الفئات المحظوظة في حياة الرفاهية[75].

[70] -Ibid., p. 59.

[71]– زمام ن.، المرجع السابق. ص. 29.

[72]– عبّاد ص.، المرجع السابق، ص. 340.

[73]– زمام ن.، المرجع السابق، ص. 30.

[74]- سعيدوني، ن.، الأوضاع الاقتصادية ...، ص.40.

[75]– عبّاد ص.، المرجع السابق، ص. 343 .

كانت المؤسسات الأجنبية إذا، هي المشرف الأساسي على التجارة الخارجية، أهمها الشركة الملكية الإفريقية* والهيئات التي خلفتها فيما بعد، وشركة بكري وبوجناح المشهورة التي كانت تقوم بتلبية حاجات فرنسا وإيطاليا واسبانيا بمختلف أنواع الحبوب، والقيام بنقل بضائع المؤسسات الفرنسية إلى مقاصدها على متن بواخر من بلدان متعددة؛ وقد حاول الأهالي أن يكوّنوا أسطولا تجاريا ليتولوّا تسويق منتوجاتهم بأنفسهم، ولكن الغرفة التجارية في مدينة مرسيليا أقامت في وجههم أنواعا من العراقيل، وتشير المصادر إلى أن الأسطول التجاري الجزائري لم يتمكن من الصمود في وجه الأسطول الفرنسي كما أنه عجز عن محاربة اليهود الليفورنيين الذين كانوا ماهرين في تسويق أسوء البضائع، وفي مخادعة رجال الجمارك الأكثر يقظة، أما التجار المسلمون فانهم كانوا مشهورين بصدقهم وأمانتهم، وإلى جانب هذه المقاومة الأجنبية كان يهود الجزائر، بحكم مكانتهم لدى الداي، يضغطون على هذا الأخير فيطلب من السلطات الفرنسية أن تمنع الجزائريين من أن ينشئوا محلات تجارية في موانئها، فهذه التصرفات جعلت الجزائريين يتركون هذا النوع من التجارة الخارجية بين أيدي الأجانب الذين لا تهمهم سوى كثرة الأرباح، مما أدى إلى انخفاض أسعار المواد المصدرة وارتفاع أسعار المواد المستوردة وترتب عن ذلك انخفاض مستوى الحياة في الجزائر بصفة عامة[76].

### 3.3.2 العلاقات التجارية مع أوروبا في أواخر الفترة العثمانية:

شهدت مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر، ميلاد شركتين تجاريتين يهوديتين هما شركة نفتالي بوجناح وشركة بكري، القادمتان من مدينة ليفرنة جنوب إيطاليا. لم يكن بينهما ذلك التنافس الذي يحدث عادة بين كبار التجار للسيطرة على الأسواق، بل على العكس، فإنهما قد تكاتفتا وراحتا تعملان معا على استعطاف الشخصيات الرسمية والأعيان في الإيالة، وذلك باستعمال جميع الوسائل؛ وبالفعل، فإن المجهودات المبذولة لم تذهب سدى، ولم يمض زمن طويل حتى بدأت كل من المؤسستين تجني ثمار ما زرعت، فاستحوذت على تجارتيّ الصوف والحبوب، حيث كانت تشترياتها من السلطات أو من الفلاحين مباشرة بأثمان زهيدة، ثم يبيعانها بأسعار باهظة إلى الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية على وجه الخصوص[77]، والتي أُسندت إليها أهم المواد التجارية في شمال إفريقيا، ويعود إنشاؤها في بادئ الأمر إلى القيام بعملية صيد المرجان، فتطورت نشاطاتها فيما بعد إلى الإتجار في مواد أخرى، حيث أصبحت أكبر نسبة أرباح الشركة تعود إلى تجارة الصوف والشعير والقمح، فتشترى هذه السلع بواسطة العملة الإسبانية (القرش)، وتتمثل أهم المرافئ للشركة في مدن القالة وعنابة وطبرقة والقلّ[78]، وعلى سبيل المثال كان القنطار الواحد من الصوف يتحصل عليه

*- تأسست هذه الشركة تحت حكم لويس الرابع عشر (Louis XIV)، وكان مرفأها الأساسي في البداية، في حصن فرنسا Bastion de France، أقصى شرق مدينة الجزائر، كان هدفها مزدوج، صيد المرجان وتجارة القمح التي كانت تتقاسمها مع إنجلترا مقرها في القالة، لكن بعد انهيار هذه الأخيرة، بقيت فرنسا مسيطرة لوحدها على هذه التجارة. عن: (L'Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786, 1ère partie, Paris, 1789, p. 18)

[76]- الزبيري، المرجع السابق، ص.83.

[77]- نفسه، ص.257.

[78] -L'Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786, 1ère partie, Paris, 1789, p. 18.

ممثل البايلك في الجزائر بـ 15 صولدي ليبيعه إلى المحتكرين الأوروبيين بـ 24 فرنكا، ليباع بعد ذلك في أسواق مرسيليا بما لا يقل عن 38 فرنك[79].

ومن أجل القيام بعملية صيد المرجان بكل حرية على شواطئ مملكة الجزائر، والحصول على التسويق الحصري للقمح والصوف والشمع والجلود على مختلف المرافئ، كان يجب على هذه الشركة أن تدفع سنويا لداي مدينة الجزائر، حوالي 100000 جنيه، يُفرض عليها أن تبعث صندوقين من بين أجمل قطع المرجان. أما عائدات القمح التي كان يكسبها باي قسنطينة عن طريق مرفأ عنابة، فكانت حوالي مائة بالمائة ويُدفع 4 جنيهات و10 فرنك مقابل قنطار من الصوف[80].

هكذا، لعبت فرنسا وانجلترا الدور الأول في إرغام الإيالة على ترك تجارتها الخارجية، التي كانت تتمّ عن طريق الموانئ بواسطة الأجانب، فأدى هذا التنافس بين هاتين الدولتين إلى شل مختلف الميادين الاقتصادية، وعرقلة النشاط التجاري على وجه الخصوص[81].

وكانت الصادرات الجزائرية تُسوّق إلى كثير من البلدان الأوروبية والأقطار الإسلامية والإفريقية، فصدّرت لأقطار المشرق العربي المصنوعات المحلية كالزرابي والحياك والأنسجة الصوفية، أما البلدان الأوروبية فقد كانت تصدر لها كميات من الحبوب وقطع الجلد والشمع والعسل والتمر والزيت والدخان والتين الجاف وريش النعام والصوف وكمية من البقول والحمضيات والخضر والفواكه[82] ومقدار ثلاثة أو أربعة قناطير من القرمز الذي يجنى بناحية معسكر، والصوف الذي يخرج من مرسى الجزائر إلى أوروبا يرد بالخصوص من تيطري وهي بلاد معروفة بغنمها اللذيذ لحمها[83].

وقد كان الصوف مصدر ربح كبير بالنسبة للشركة الملكية الإفريقية التي كانت تساهم في جلب أكثر من ثمن الكمية التي تستوردها مرسيليا من آسيا والمشرق والتي تقدر سنويا بحوالي أربعين ألف بالة، وتشغل عددا كبيرا من المصانع في مختلف أنحاء فرنسا. ثم تطورت صناعة هذه المادة، فارتفعت كميات الاستهلاك، وما كاد القرن الثامن عشر ينتهي حتى أصبحت موانئ الشرق الجزائري تصدر إلى مرسيليا 28 ألف قنطار في كل سنة[84] بسعر 8 دولارات للقنطار، إذ كانت تصدّر ما بين 7000 و8000 قنطار جُلب بمعظمها من منطقة التيطري، وما بين 10000 و12000 قنطارا من مدينة عنابة، حيث كانت من بين المواد الحصرية التي تتاجر فيها الشركة الإفريقية هناك، أما عن صوف منطقة الجزائر العاصمة وتيطري ومعسكر فلم تكن محتكرة من طرف هذه الشركة، بل كانت تحت تصرّف البايلك الذي يقوم

[79]- سعيدوني، ن المرجع السابق، ص.43.

[80] -L'Abbé Poiret, Op.Cit., p.20.

[81]- الزبيري، المرجع السابق، ص.147.
[82]- سعيدوني ن.، المرجع السابق، ص. 81.
[83]- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص. 147.
[84]- الزبيري، المرجع السابق، ص.101.

ببيعها لمن يريد[85]، كما تمثلت أغلب صادرات مدينة قسنطينة في المرجان والحبوب والجلود والأصواف والتمور وزيت الزيتون، حيث كانت تُصدر الصوف كمادة أولية نحو فرنسا وبريطانيا[86]، وكانت نوعية هذه المادة محببة كثيرا لدى الأوروبيين أكثر من صوفهم، ولأصبحت من المقومات الهامة في اقتصاد البلاد لولا العلاقات الطيّبة التي كانت تربطهم مع سكان منطقة الأطلس والمناطق الداخلية التي كانت تبيعها لهم بأثمان جدّ مناسبة[87]؛ هذا، وقد أشار الباي أحمد آخر بايات قسنطينة، في مذكراته إلى أن كل ثروة المنطقة تتمثل في القمح والأصواف التي كانت تُباع في ميناء عنابة[88]، هذا دليل على أنّ مكانة مادة الصوف كانت تأتي مباشرة بعد مادة القمح.

نستنتج من خلال هذه الأرقام، أن الصوف كمادة أولية، كانت لها وزنا ومكانة ضمن المواد المصدرة نحو الخارج، كما كانت تساهم بقسط لا بأس به في انتعاش الاقتصاد الوطني وأحد مقوّماته، إذ يُباشر مهمة المتاجرة فيه مسؤولين كبار في البلاد مع شركات اقتصادية كبيرة لها وزنها في الاقتصاد العالمي.

لكن الوضع تغير في مستهل القرن التاسع عشر عندما شرعت السلطات الفرنسية في الاعتناء بتربية الماشية وبالأغنام على وجه الخصوص، وقد وجدت هذه السلطات عاملا محفزا في إقدام الجزائر على حرمان الوكالة من الامتيازات التي كانت تحظى بها، ونقل المؤسسات التجارية إلى الإنجليز سنة 1807. وبالفعل، فإن مجهودات الفرنسيين قد كللت بالنجاح وأصبحت مرسيليا لا تستورد، سنة 1817 سوى نصف الكمية التي كانت تصدر إليها في السابق، وعندما يعلن الحصار على الموانئ الجزائرية تكون هذه التجارة قد صارت من الثانويات[89]؛ أما عن الواردات، فإضافة إلى بعض المواد الضرورية المستوردة من فرنسا وإنجليترا وهولندا، فكانتا هتان الدولتان تعوضان بضائعهما بالتين اليابس والشمع والتمر والجلود والصوف والزبيب والدخان وبعض المنسوجات[90].

## 3. خاتمة

من خلال ما سبق ذكره وما تقدم، نستطيع القول أن مادة الصوف مادة متوفرة في البلاد منذ القدم، نظرا لوجود عوامل طبيعية أدّت إلى وفرة مصدرها، والمتمثل في تربية المواشي بأعداد كبيرة انتشرت عبر كل المناطق تقريبا وبدرجات متفاوتة، فكانت بمثابة مصدر رزق لسكان المناطق الجبلية والسهبية، تستعملها في إنجاز مستلزماتها اليومية من القطع الصوفية وتبيع ما فاض عن احتياجاتها عن طريق الأسواق اليومية أو الأسبوعية المنظمة داخل المدن والقرى.

[85] -Venture de paradis, Alger au XVIIIè siècle, Tunis, S.D., p. 18.

[86]- دحدوح، المرجع السابق، ص. 168-169.

[87] -Rozet M., voyage dans la régence d'Alger, ou Description du pays occupé par l'armée Française en Afrique, France, 1833, p. 263

[88]- الزبيري، المرجع السابق، ص.101.
[88]- شالر، و.، المرجع السابق، ص. 103.
[89]- الزبيري، المرجع السابق، ص.101.
[90]- نور الدين ع.، المرجع السابق، ص. 148.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن جودة بعض الأصواف أدى بالتجّار إلى البحث عنها وشرائها، فأصبحت من بين المواد الهامة التي تُصدر نحو البلدان الأوروبية خصوصا بالموازاة مع تجارة مواد القمح والمرجان والشمع والزيت، فاكتسبت مكانة هامة ضمن المواد المصدرة والمشاركة في عملية التجارة.

## 4. المراجع البيبليوغرافية باللغة العربية

**المصادر:**

– ابن حوقل محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.

– ابن خلدون عبد الرحمن، المنتخب من المقدمة وكتاب العبر، الجزائر، 1947.

– // ، تاريخ بن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000.

– ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1981.

– البكري أبي عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

– خوجة حمدان، المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، ط 2، الجزائر 1982.

– الزهار أحمد الشريف، *مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار*، 1168–1246هـ /1754–1830م، الجزائر، 1974.

– الوزان حسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، ج. 2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983.

– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، بيروت، ج1، بيروت، 1404هـ / 1984م.

**المراجع:**

– الزبيري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 1972

– زمام نور الدين، السلطة الحاكمة والخيارات التنموية بالمجتمع الجزائري 1962–1998، دار الكتاب العربي، ط.1، الجزائر، 2002.

– سعيدوني، ناصر الدين وبو عبدلي، المهدي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ج.4، الجزائر، 1984.
نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006.
– شالر ويليام، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824)، تعريب إسماعيل العربي، الجزائر، 1982.
– شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (926 – 1246 هـ / 1519– 1830م)، ط. 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.
– عبّاد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514–1830، دار هومة، الجزائر، 2012.
– مرزوق عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، د.ت.

**الرسائل الجامعية:**

– بورملة خديجة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أحمد بن بلة وهران، وهران، 2017–2018.
– دحدوح عبد القادر، عمران وعمارة مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2009–2010.
– طيان شريفة، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني –دراسة أثرية فنية– أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2007–2008.

**المجلاّت والدوريات:**

– سعيدوني، ناصر الدين، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر– تونس– طرابلس الغرب) من القرني العاشر إلى الرابع عشر الهجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي)، في "حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية"، الحولية الحادية والثلاثون، الكويت، 1431هـ/ 2010 م، ص.ص. 7–139.
– مكحلي، محمد، "الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني 1707–1827م"، مجلة علوم إنسانية، مجلة إلكترونية محكمة **WWW.ULUM.NL** ، هولندا، العدد31، السنة الرابعة، الجزائر، نوفمبر 2006.

**القواميس:**

– ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج5.
– عمارة محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشرق، ط.1، بيروت، 1993.

**المراجع باللغة الأجنبية:**

- L'Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786, 1ère partie, Paris, 1789.

- Bertholon L. et Chantre E., Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale, Tripolitaine, Tunisie, Algérie, T.1, Lyon, 1913.

- Boudicour, L., La colonisation de l'Algérie, Paris, 1856.

- De Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique Septentrionale ou Magreb avec les nations chrétiennes au moyen âge, Librairie de Firman-Didot et Cie, Paris, 1886.

- Golvin, L. Les arts populaires en Algérie, T.I., Alger, 1953.

- Gustave Couput, Les laines et l'industrie lainière de l'Algérie à l'exposition de 1889, Alger, 1889.

- Rozet M., voyage dans la régence d'Alger, ou Description du pays occupé par l'armée Française en Afrique, France, 1833.

- Sagne, J., L'Algérie pastorale, ses origines, sa formation, son passé, son présent son avenir, Alger, 1950.

- Valensi Lucette, Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830), Flammarion, Paris, 1969. Venture de paradis, Alger au XVIIIè siècle, Tunis, S.D.

**الرسائل الجامعية:**

- Soltani Nadjmeddine, Etude des caractéristiques morphologiques de la race ovine dans la région de Tébessa, mémoire de magistère en production animale, Faculté des sciences de la nature et de la vie, département d'agronomie, université Ferhat Abbas Sétif, Sétif, 2011.

**المجلاّت والدوريات:**

- Guiral Jacqueline, « Les relations commerciales du royaume de valence avec la Berbérie au XIe siècle », in Mélanges de la Velázquez, T.10, 1974, PP. 99-113.